القرائن السياقية ودورها في التحليل اللغوي

د.محمد الأمين خويلد
جامعة الجلفة- الجزائر

الملخص

السياق قرينة من القرائن المؤثرة في معنى الخطاب، وقد أدركَ علماؤنا الأوائل أثرَ السياق في توجيه المعنى وتحديده، وتمثل لديهم في جانبين: الأول السياق اللغوي الذي يقوم على أساس أنّ الكلمة لا قيمة لها في حال إفرادها، وإنّما يكون حُسنُها ورداءتُها في نظمِها، والثاني السياق الحالي، وذلك بربطهم الصياغة اللغوية بالسياق الذي وردت فيه وتأكيدهم قاعدة: لكلّ مقامٍ مقالٌ، وضرورة مراعاة البليغ لمُقتضَيات الأحوال والمَقامات مثل حال المتكلّم، والمُخاطَب، والظروف والملابسات المُحيطة بالحدث الكلامي .

Contextual clues and its role in the Arab linguistic analysis

Mohamed el-amine Khouiled
University Ziane Achour - Djelfa - algeria

Abstract

The context is one of the indices affecting the meaning of the discourse. Thereby , our first scientists have relized that the context has impact in directing and identifying the sense according to two aspects :

The first one is the linguistic context which considers the word itself with no value outside the lingual structure .

The second is the situational context based on connecting the linguitic reformulation with its context applying the rule : (Each situation requires an appropriate speech). The eloquent subject must take into account the different circumstances and situations like the situation of the speaker , the receiver and the verbal event.

تمهيد

لقد شاع في الدرس الحديث أن العديد من النظريات اللغوية والمعرفية حديثة النشأة، مثل ما هو متداول عن علم الدلالة، على الرغم من أن جل مباحثه مطروقة قي الدرس اللغوي العربي منذ القدم، وإن كانت تلك المسائل مبثوثة في فروع مختلفة من علوم اللغة، من ذلك المباحث المتصلة بأنواع الدلالات عامة و الدلالات اللغوية خاصة، والمسائل المتصلة بالعلاقات الدلالية، والرسائل ومعاجم الموضوعات ..... ، والحديث عن السياق بوصفه قرينة أساسية لا يستغني عنها أي تحليل بلاغي أو لغوي يندرج ضمن هذا المجال الذي يسعى لإثبات أصالة العديد من المسائل اللسانية في تراثنا اللغوي ، وتثمين هذا الموروث ، وإبراز قيمته العلمية .

أولا : تحديد ماهية السياق

السياق لغة من " انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت .والمساوقة :المتابعة، كأن بعضها يسوق بعضا " (١)، فالسياق من الناحية اللغوية :تتابع الشيء على نسق واحد.

ومن الناحية الاصطلاحية: سياق الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه(٢)، فهو الكلام المتتابع إثره على إثر بعض، والذي يلزم من فهمه فهم شيء آخر ، أو هو قرينة توضح المراد - لا بالوضع- ، تؤخذ من لاحق الكلام الدال على خصوص المقصود، أو سابقه والمعاني السياقية هي تلك المعاني التي تفهم من تراكيب الخطاب، بواسطة القرائن المعنوية والقرائن اللفظية والحالية

وإذا كان السوق يقع حسًّا كسوق الإبل والمهر، ويقع معنى كسوق الكلام، فإنا نلحظ مدى الترابط بين المدلولين :اللغوي، والاصطلاحي لدلالة السياق، فالقرائن التي تساق في الخطاب قد تكون معنوية كالقرائن العقلية، وقد تكون حسية كالقرائن الحالية، والقاسم المشترك بين السوق الحسي، والسوق المعنوي: الاتصال، والمتابعة.

و ميز علماء اللغة بين السياق اللغوي والسياق غير اللغوي، يرتبط السياق اللغوي بالقرائن اللغوية التي يتضمنها الدليل ويستدل بها على مدلوله من جهة اللفظ والمعنى لتحديد المعنى اللغوي، أو ما يعبر عنه بالمعنى النحوي أو الوظيفي للجملة الذي قد تتعدد احتمالات دلالاته فيصبح بحاجة إلى اعتبار القرائن لرفع تلك الاحتمالات وتحديد المعنى المراد.

يقول الشاطبي في سياق استدلاله على أهمية أسباب التنـزيل في فهم القرآن الذي هو أصل أدلة الأحكام " علم المعاني والبيان الذي يعرف به إعجاز نظم القرآن فضلا عن معرفة مقاصد كلام العرب إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال، حال الخطاب من جهة نفس الخطاب أو المخاطب أو المخاطب أو الجميع إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين وبحسب مخاطبين وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام لفظه واحد ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغير ذلك وكالأمر يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ولا يدل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة وعمدتها مقتضيات الأحوال وليس كل حال ينقل ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة فات فهم الكلام جملة أو فهم شيء منه ، ومعرفة الأسباب رافعة لكل مشكل في هذا النمط فهي من المهمات في فهم الكتاب بلا بد ومعنى معرفة السبب هو معنى معرفة مقتضى الحال" (٣)

لذلك يرى "ابن القيم" أن السياق« يرشد إلـى تبيين المجمل و تعيين المحتـمل، و القطع بعدم احتمال غير المراد، و تخصيص العام، و تقييد المطلق، و تنوع الدلالة، و هذا من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم». (٤)

ويعتمد السياق غير اللغوي على قرائن غير مرتبطة بالدليل والمدلول لتحديد مراد المتكلم بحسب مقتضى الحال ، وهذا المعنى هو المعبر عنه بالمعنى المراد من الخطاب أو مقتضى الحال ويشتمل على عناصر متعددة تتصل بالمخاطب والمخاطب وسائر الملابسات التي تحيط بالخطاب ، وهذا قدر زائد على مجرد فهم وضع اللفظ في اللغة ، كاختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة في القرآن الكريم حيث تذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام ، وتبرز معاني أخرى في مقامات مغايرة حسب مقتضيات الأحوال.

و يؤكد الدكتور تمام حسان أن قرينة السياق تمتد على مساحة واسعة من الركائز، تبدأ باللغة من حيث مبانيها الصرفية وعلاقاتها النحوية ومفرداتها المعجمية ، وتشمل الدلالات بأنواعها من عرفية إلى عقلية إلى طبيعية كما تشمل المقام بما فيه من عناصر حسية ونفسية واجتماعية، وكذلك العناصر الجغرافية والتاريخية ، مما يجعل قرينة السياق كبرى القرائن بحق ، فالمبنى الواحد متعدد المعنى ، ومحتمل كل معنى مما نسب إليه وهو خارج السياق ، أما إذا تحقق المبنى بعلامة في السياق، فإن العلامة لا تفيد إلا معنى واحدا تحدده القرائن اللفظية والمعنوية والحالية ، وهذا التعدد والاحتمال في المعنى الوظيفي يقف بإزائه تعدد واحتمال في المعنى المعجمي أيضا. (٥)

وفهم مدلول الخطاب وسياقه أمر يتفاوت في فهمه المخاطبون وبحسب ذلك تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم ، فعدم إدراك السياق مطلقا في فهم الخطاب ليس كادراك السياق المقالي وحده أو المقامي

وحده، وهذه المرتبة ليست كإدراكهما معا في فهم خطاب معين ، فمن لوازم الفهم السليم للخطاب العلم بالقرائن المرتبطة به جملة وتفصيلا والتي تشكل سياقه.

ثانيا: السياق ونظرية النظم

تعد نظرية النظم للجرجاني من أبرز النظريات التي تتجلى فيها أهمية السياق. فمطابقة الكلام لمقتضى الحال هو ما يسميه الإمام "عبد القاهر الجرجاني" باسم (النظم) ليس إلا توخي معاني النحو فيما بين الكلم على حسب الأغراض التي يصاغ لها الكلام.

والفصاحة لا يمكن أن توصف بها الكلمة (مفردة) إلاّ ضمن مجموع السياق الذي ترد فيه؛ و يقول "الجرجاني": « و من المعلوم أنّ لا معنى لهذه العبارة وسائر ما يجري مجراها، ممّا يفرد في اللفظ بالنعت والصفة و ينسب فيه الفضل و المزية إليه دون معنى، غير وصف الكلام بحسن الدلالة و تمامها فيما كانت له دلالة».(٦)

و يؤكد "الجرجاني" في موضع آخر أن لا معنى لتفاضل الكلمات من غير النظر إلى السياق الذي وردت فيه « و هل يقع في وهم - و إن جهد - أن تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير أن ينظر إلى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم... و هل تجد أحداً يقول هذه اللفظة فصيحة إلاّ و هو يعتبر مكانها من النظم، و حسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها و فضل مؤانستها لأخواتها».(٧)

استندت نظرية النظم - أساساً - إلى قضية السياق و الموقف الكلامي الذي يتطلب - كلّما تغير - نمطا معينا من التركيب، و يدخل ضمن الموقف الكلامي كلّ ما يتصل بظروف عملية الإبلاغ من مُخَاطِبٍ و مُخَاطَبٍ وخطاب.

ويكاد يجمع أهل اللغة أن محاولة عبد القاهر الجرجاني تفسير العلاقات السياقية في الخطاب، من أعظم الإنجازات اللغوية في هذا الباب، وذلك بإشارته للقرائن السياقية التي تساعد على تحليل المعاني النحوية في الكلام(٨) ، فقد تجاوز عبد القاهر بدراسته للتراكيب حدود ذكر الخطأ والصواب، بل إنه تعدى ذلك إلى بيان حسن الجودة، وتحليل الرداءة في الخطاب، وسعى إلى الربط بين النحو والمعنى داخل السياق الكلامي، ومن ذلك لا تبرز أهمية اللفظة عنده إلا عندما توظف في سياق كلامي، وأن قيمتها ليست ذاتية بل تفهم مجتمعة مع كلمات أخرى، فلقد أكد عبد القاهر أن "تركيب الكلمات هو الذي يعطي كل جزئية أهميتها في السياق". (٩)

وقد أدرك الجرجاني دور سياقات التقديم والتأخير في توجيه الكلام إلى وجهة دلالية خاصة، وذلك بالنظر إلى عنصرين قائمين في الصياغة هما: الثابت والمتغير، يتمثل الثابت في تواجد أطراف الإسناد وما يتصل بها من متعلقات، أما المتغير فيتمثل في تحريك بعض هذه الأطراف من أماكنها الأصلية التي اكتسبتها من نظام اللغة إلى أماكن جديدة ليست لها في الأصل، وسياقات التقديم والتأخير لها اعتبارات ترتبط فيها بالمتكلم، واعتبارات ترتبط فيها بالمتلقي، واعتبارات ترتبط بطبيعة الصياغة ذاتها(١٠)، ومن إشارات الجرجاني إلى السياق حديثه عن الحذف في الكلام فهو "باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر، أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانا إذا لم تبن".(١١)

ويعول كثير من علماء اللغة على المعنى أكثر من تعويلهم على غيره، يقول "السيوطي": «... و صناعة النحو قد تكون فيها الألفاظ مطابقة للمعاني و قد تكون مخالفة لها إذا فهم السامع المراد، فيقع الإسناد في اللفظ إلى شيء و هو في المعنى إلى شيء آخر إذا علم المخاطب غرض المتكلم، و كانت الفائدة في كلا الحالين واحدة».(١٢)

والقرائن الحالية هي التي تهدي كما قلنا إلى عدم الأخذ بظاهر اللفظ فقط والاكتفاء به ، قال ابن هشام في " المغني": «... متى بني على ظاهر اللفظ و لم ينظر في موجب المعنى حصل الفساد»(١٣)

ثالثا: دور السياق في تقدير المحذوف

يبرز دور القرائن في توجيه المعنى ، عند تناول النصوص بالإعراب ؛ حيث نرى كيف كان الإعراب و التقدير يبنيان على عدّة اعتبارات ليس ظاهر اللفظ أهمها في كثير من الأحيان، و هو ما عرف لدى القدماء بالحمل على المعنى و عدّه "ابن جني" من شجاعة العربية.

قال سيبويه : «قولك إذا كنت تحذر: إياك، كأنك قلت: إياك نح، و إياك باعد، وإياك اتق، وما أشبه ذلك... و من ذلك، رأسه و الحائط... و إنّما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم و استغناء بما يرون من الحال، و بما جرى من الذكر».(١٤) فما حذف يدلّ عليه المقام ككلّ، من عناصره هنا أنّ الموقف موقف تحذير.

و قال ابن جني في "الخصائص" يعلل حذف الصفة: « و قد حذفت الصفة ودلت الحال عليها، و ذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم: سير عليه ليل، و هم يريدون: ليل طويل، و كأن هذا إنّما حذفت فيه الصفة لما دلّ من الحال على موضعها، وذلك أنّك تحس من كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح و التفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله: طويل أو نحو ذلك».(١٥)

و نلحظ أن الاعتبار انتقل هنا إلى التركيز على المتكلم نفسه، و ما يصاحب كلامه من إشارات وحركات و غيرها، عبّر عنه "ابن جني" بالتطويح والتطريح... و معلوم أنّ هذه القرائن غير مقالية ولكنها ـ باعتبارها قرائن حالية ـ ساهمت في أداء دور الألفاظ و قامت مقامها.

وفصل "ابن جني" بعد هذا عناصر المقام، فتحدث عن الموقف الذي يكون فيه المتكلم، فإنّه هو الذي يعين الدلالة و يفيد في تقدير المحذوف، فموقف المدح غير موقف الذم، قال: « و أنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته، و ذلك أن تكون في مدح إنسان و الثناء عليه، فتقول: كان و الله رجلاً فتزيد في قوة اللفظ بهذه الكلمة و تتمكن في تمطيط اللام وإطالة الصوت بها... أي رجلاً فاضلاً أوشجاعاً أو كريماً أو نحو ذلك ».(١٦)

وقد تحدث علماء البلاغة عن الحذف والذكر، في سياقات الكلام التي يرد فيها حذف أحد أطراف الإسناد، "وذلك من منطلق أن النظام اللغوي يقتضي في الأصل ذكر هذه الأطراف، ولكن التطبيق العملي من خلال الكلام قد يسقط أحدها اعتمادا على دلالة القرائن المقالية أو الحالية...، والأساس العام لمفهوم الحذف ينطلق من الحاجة الفنية للمعبر في استخدام هذا النسق من الأداء".(١٧)

ومن أمثلته أن يكون "للفعل مفعول مقصود معلوم، إلا انه يحذف بدليل الحال عليه، كقولنا: أصغيت إليه والمقصود: أذني، وأغضيت إليه والمعنى جفني"،(١٨)

ومن إنجازات البلاغيين التي تتجلى فيها أهمية السياق مباحثهم في المجاز والنقل، حيث "يغلب استعمال اللفظ في غير ما وضع له...، حتى ينسلخ عن معناه الأصلي. أو يكاد، ولا ينصرف الذهن عند إطلاقه إلا إلى هذا المعنى الجديد، ويطلق علماء البيان على هذه الظاهرة اسم النقل"،(١٩) وهذه الظاهرة لها صلة وطيدة بدلالة اللفظ، حيث تنتقل الألفاظ من الدلالات الأصلية التي تم التواضع عليها إلى دلالات طارئة ذات صبغة جمالية، فتتكاثر المدلولات على حسب موضع الكلمة في مختلف التراكيب. (٢٠)

ويكثر في اللغة العربية استعمال الألفاظ والتراكيب في غير ما وضعت له لأغراض بلاغية، كتوضيح المعنى، والمبالغة في تقريره، والإبانة عليه، أو الإشارة إليه في قليل من اللفظ .

وإن لظاهرة المجاز والنقل في اللغة "أثر جليل في اتساع العربية ونموها، وقدرتها على التعبير على المعقولات المحضة، ومعنويات الأمور، فكثير من الألفاظ العربية الدالة على المعاني الكلية، والظواهر النفسية منقولة في الأصل من الأمور الحسية عن طريق المجاز، ثم شاع استعمالها في معانيها الجديدة، حتى أصبح إطلاقها عليها من قبيل الحقيقة اللغوية. (٢١)

وقد عده سيبويه من اتّساع الكلام، فممّا جاء-عنده- على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى: وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الِتي كُنا فِيهَا... [يوسف ٨٢]. إنّما يريد أهل القرية فاختصر. "ألا ترى أنك لو رأيت (سل القرية) في غير التنزيل، لم تقطع بأن هاهنا محذوفا فالجواز أن يكون كلام رجل مر بقرية قد خربت و باد أهلها، فأراد أن يقول لصاحبه واعظا، ومذكرا، أو لنفسه متعظا معتبرا: سل القرية عن

أهلها، وقل لها ما صنعوا...، والوجه الثاني أن يكون امتناع ترك الكلام على ظاهره، ولزوم الحكم بحذف أو زيادة من أجل الكلام نفسه، لا من حيث غرض المتكلم به، وذلك مثل أن يكون المحذوف أحد جزأي الجملة، كالمبتدأ في نحو قوله تعالى {فَصَبرٌ جَمِيلٌ} (سورة يوسف الآية ١٨)، وقوله {مَتَاعٌ قَلِيلٌ} (سورة النحل الآية١١٧) لابد من تقدير محذوف، ولا سبيل إلا أن يكون له معنى دون سواه كان في التنزيل أو غيره"،(٢٢)

ومن هنا ندرك أن الحذف نوعان: مجاز وغير مجاز، ولكن تقدير المحذوف في كليهما، يرجع إلى السياق الذي وردت فيه الكلمة. ولا ينبغي أن يقال أن وجه المجاز في هذا، الحذف، فإن الحذف إذا تجرد عن تغيير حكم من أحكام ما بقي بعد الحذف، لم يسم مجازا ألا ترى أنك تقول: زيد منطلق وعمر. فتحذف الخبر ثم لا توصف جملة الكلام من أجل ذلك بأنه مجاز، وذلك لأنه لم يؤد إلى تغيير حكم فيما بقي من الكلام". (٢٣)

ومثال ذلك في كلامهم: بنوا فلان يطأهم الطّريق, و إنّما يطأهم أهل الطّريق. (٢٤) ومثله حذف ما يضاف إلى الآباء والأمهات كقولك في بني تميم وبني سلول :تميم وسلول. (٢٥)

وذكر ابن جني أنّ حذف المضاف كثير واسع، وهو في عدد الرمل سعة وأنّ أبا الحسن لا يقيس عليه،(٢٦) و اشترط المبرد لحذفه وجود دليل، فلا يصح أن يقال: جاء زيد، على أنّ المراد: جاء غلام زيد؛ لأنّه لا دليل على المحذوف. وذكر الزجاجي أنّه ليس في التنزيل من المحذوفات أكثر منه ، و لم يدوّن النّحويون في مؤلّفاتهم مواضع حذف المضاف في التنزيل أو غيره، مكْتفين بذكر شواهد قليلة من التنزيل و من كلام العرب نظمه و نثره، و يعود ذلك إلى كونهم لم يستقصوا ما في التنزيل استقصاءً وافياً. (٢٧)

ويرى عز الدين بن عبد السلام أن لحذف المضافات في القرآن مواضع كثيرة؛ منها نسبة التحليل و التحريم و الكراهة و الإيجاب و الاستحباب إلى الأعيان، فهذا من مجاز الحذف، إذ لا يتصور تعلق الطلب بالأجرام و إنّما تتطلب أفعالا تتعلق بها. و قد سرد الشيخ عز الدين في كتابه "الإشارة" حذف المضافات على ترتيب السور و الآيات. (٢٨)

ومن أمثلة الإيجاز الناتج عن حذف جزء من الجملة، قوله تعالى {مِنَ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ} (سورة التوبة الآية ١٠٨) ، لأن "التقدير فيه من تأسيس أول يوم، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه"،(٢٩)

ويذهب علماء اللغة إلى التفريق بين وجهين من الحذف في الكلام الذي يمتنع حمله على ظاهره، حتى يدعو إلى تقدير حذف مذكور، فقد يكون امتناع تركه على ظاهره لأمر يرجع إلى غرض المتكلم، إن كثيرا من الكلم في هذه اللغة حقيقة بوضعه، ومجازا بتوسعات أهل الخطابة والشعر فيه، ومثال ذلك "أنّا إذا قلنا: شمس أردنا به هذا الكوكب العظيم الكثير الضوء وهذا الاسم له حقيقة لأنه وضع بإزائه...، فإذا نقلنا الشمس إلى الوجه المليح استعارة، كان ذلك له مجازا لا حقيقة". (٣٠)

رابعا : دور السياق في توجيه المعنى

بين البلاغيون أننا نجد من الكلام ما يدل على معنيين وثلاثة، واللفظ واحد والمعاني التي تحته متعددة ومثل ذلك "قول أبي الطيب المتنبي :

وأظلم أهل الظلم من بات حاسدا   لمن بات في نعمائه يتقلب

فهذا يدل على ثلاثة معان، الأول أنه يحسد من أنعم عليه، والثاني ضد الأول، والثالث أنه يحسد كل رب نعمة كائنا من كان"(٣١)، وهذا مظهر بلاغي يجلي دور السياق في توجيه المعاني التي يقصدها المتكلم، لأن ما جاء على هذا الباب هو أشبه ما يكون بالمشترك اللفظي، وتخصيص المعاني فيه لا يكون إلا من خلال إيرادها في سياقات مختلفة. ويرى ابن سنان الخفاجي أن استعمال الألفاظ الغريبة نقص في الفصاحة، التي هي الظهور والبيان، و " أما استعمال الألفاظ المشتركة كالصدى، فإنه يحسن في فصيح الكلام إذا كان في اللفظ دليل عن المقصود، مثل قول أبي الطيب:

ودع كل صوت دون صوتي فإنني أنا الطائر المحكي والآخر الصدى

فإن الصدى هاهنا لا يشكل بالصدى الذي هو العطش، ويسبق ذلك إلى فهم أحد من السامعين"(٣٢)، وليس ذلك إلا لوجود قرينة في الكلام تخصص معنى (الصدى) في هذا البيت وهي كلمة (صوت) .

وينبه ابن سنان إلى أن الكلام الذي وضع لغزا، ليس من هذا الباب، ولا يعتبر من هذا القبيل، فالموضوع "على وجه الإلغاز، قد قصد قائله إغماض المعنى، وإخفائه، وجعل ذلك فنا من الفنون التي يستخرج بها أفهام الناس، ويمتحن أذهانهم، فلما كان وضعه على خلاف وضع الكلام في الأصل، كان القول فيه مخالفا لقولنا في فصيح الكلام، حتى صار يحسن فيه ما كان ظاهره يدل على التناقض، أو ما جرى مجرى ذلك، كما قال بعضهم في الشمع:

تحيا إذا ما رؤوسها قطعت وهن في الليل أنجم زهر.

ومن ذلك أيضا، قول أبي العلاء:

إذا صدق الجد افترى العم للفتى مكارم لا تكرى وإن كذب الخال.

لأنه يريد بالجد الحظ، وبالعم الجماعة من الناس، وبالخال المخيلة. وقد ألغز بذلك عن العم، والجد، والخال، من النسب. فهذا وأمثاله ليس من الفصاحة بشيء. وإنما هو مذهب مفرد وطريقة أخرى(٣٣).

خامسا: السياق و الإيجاز

من القضايا البلاغية المرتبطة بالسياق مسألة الإيجاز والاختصار في الكلام، حيث يمكن أن يُعبر بالألفاظ على إيجازها عن المعنى الكثير، ولكن يشترط وجود ما يدل على المراد في الكلام. لئلا تذهب النفس فيه كل مذهب، ومن أمثلة العبارات الموجزة التي حذفت فيها الأجوبة -لدلالة الكلام عليها- قوله تعالى: {وَلَوَ أنَ قرُآنا سُيرت به الجبِالُ أَو قُطعَت بِهِ الأرْضُ أَو كُلم بِهِ المَوْتَى} (سورة الرعد الآية : ٣١). فكأنه يريد: لكان هذا القَرآن. لكنه لم يقل ذلك، ومثله قوله تعالى {وَسِيقَ الذينَ اتقَوْا رَبهُم إِلَى الجَنةِ زُمَراً حَتى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتحَت أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيكُم طِبْتُم فَادْخُلُوهَا خَالِدِين} (سورة الزمر الآية:٧٣) فكأنه يريد: لما كان هذا كله حصلوا على النعيم الذي لا يشوبه كدر، أو غير ذلك من الألفاظ، ولكنه لم يقله لدلالة السياق عليه.

ولقد كان أبو الحسن علي بن عيسى الرماني يسمى هذا الجنس، وهو إسقاط كلمة لدلالة فحوى الكلام عليها: بالحذف، ويسمى بنية الكلام على تقليل اللفظ وتكثير المعنى من غير حذف: القصر، ويجعل الإيجاز على ضربين القصر والحذف .(٣٤)

وتحدث ابن الأثير -أيضا- عن الإيجاز، وعرفه بأنه دلالة اللفظ عن المعنى، من غير أن يزيد عليه. وهو ينقسم إلى قسمين، أحدهما الإيجاز بالحذف، وهو ما يحذف منه المفرد والجملة لدلالة فحوى الكلام على المحذوف، ولا يكون إلا فيما زاد معناه على لفظه والقسم الآخر ما لا يحذف منه شيء وهو ضربان: أحدهما ما ساوى لفظه معناه، ويسمى التقدير، والآخر ما زاد معناه على لفظه ويسمى القصر، فالقسم الأول يمكن أن نتوصل فيه إلى معرفة المحذوف مفردا كان أو جملة لتوفر السياق على قرينة دالة عليه، ولذلك رأى ابن الأثير أن دلالة لفظه على معناه، تكون من غير زيادة عليه، بل يبين أن "الأصل في المحذوفات جميعها على اختلاف ضروبها أن يكون في الكلام ما يدل على المحذوف، فإن لم يكن هناك دليل على المحذوف، فإنه لغو من الحديث لا يجوز بوجه.(٣٥)

ومثال ما حذف من المفردات حذف الفاعل، والاكتفاء في الدلالة عليه بذكر الفعل كقول العرب: أرسلت، وهم يريدون جاء المطر، ولا يذكرون السماء، وقد يحذف المفعول به، وعلى هذا جاء قوله تعالى {وَإِنهُ هُوَ أَضحَكَ وَأَبكى} (سورة النجم الآية : ٤٣) ، أي أضحك من ضحك، وأبكى من بكى، ومن ذلك حذف القسم أو جوابه، ومثال حذف القسم، قولك: لأفعلن، أي: و الله لأفعلن، أما حذف الجواب، ففي نحو قوله تعالى {ق وَالْقُرْآنِ المَجِيدِ} (سورة ق الآية:٠١) فإن معناه: ق والقرآن

المجيد لتبعثن،(٣٦) وحذف الجواب في مثل هذا الموضع "لتذهب نفس السامع في تقديره كل طريق ممكن في المقام"،(٣٧) لأن ذلك أعظم في النفوس وأكثر إثارة للرهبة والإجلال.

ومثال ما حذف فيه من الجمل المفيدة ودل سياق الكلام عليها قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إلا قَلِيلاً مما تَأكُلُونَ ثُم يَاتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَاكُلْنَ مَا قَدمْتُمْ لَهُن إلا قَلِيلاً مِما تُحْصِنُونَ، ثُم يَاتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَاسُ وَفِيهِ يَعصِرُونَ وَقَالَ المَلِكُ ايتُونِي بِهِ} (سورة يوسف الآيات:٤٧-٥٠) ، فقد "حذف من هذا الكلام جملة مفيدة تقديرها: فرجع الرسول إليهم، فأخبرهم بمقالة يوسف، فعجبوا لها أو فصدقوه عليها، وقال الملك: إيتوني به، والمحذوف إذا كان كذلك دل عليه الكلام دلالة ظاهرة، لأنه إذا ثبتت حاشية الكلام، وحذف وسطه ظهر المحذوف لدلالة الحاشيتين عليه".(٣٨)

وأمثلة هذا الحذف كثيرة جدا في القرآن الكريم، ومن أمثلة حذف الجمل في الشعر ودلالة السياق عليها "قول أبي الطيب المتنبي:

لا أبغض العيس لكني وقيت بها قلبي من الهم أو جسمي من السقم

وهذا البيت فيه محذوف تقديره: لا أبغض العيس لإنضائي إياها في الأسفار، ولكني وقيت بها كذا وكذا، فالثاني دليل على حذف الأول، وهذا موضع يحتاج إلى استخراجه واستخراج أمثاله إلى فكرة وتدقيق نظر"،(٣٩) فمن شروط الحذف التي ركز عليها اللغويون لكي يصح التقدير، وجود دليل يشير إلى المحذوف كقولك لمن رفع سوطا (زيدا) بإضمار اضرب،(٤٠) وقد صنف علماء اللغة أدلة الحذف إلى نوعين "أحدهما غير صناعي وينقسم إلى حالي ومقالي...، والثاني صناعي، وهذا يختص بمعرفته النحويون، لأنه إنما عرف من جهة الصناعة".(٤١)

يقول ابن يعيش "اعلم أن المبتدأ والخبر، جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعها فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منها إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما. فيحذف لدلالتها عليه"،(٤٢)

وقد جاء "حذف الجملة التي هي خبر بأسرها للدلالة عليها، نحو قوله تعالى {وَاللاَئِي يَئِسنَ مِنَ المَحِيضِ مِن نِسَائِكُم إِن ارتَبتُم فَعِدتُهُن ثَلاَثَةُ أَشهُرٍ وَاللائِى لَم يَحِضن} (سورة الطلاق الآية ٠٤) معناه: فعَدتهن ثَلاثَة أشهر، إلا أنه حُذف لدلالة الأولَ عليه".(٤٣)

سابعا: أهمية السياق في الترجيح والتضمين

ومن المسائل البلاغية التي أثارها ابن الأثير، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالسياق، مسألة (الترجيح بين المعاني)، فقد يرجح بين معنيين أحدهما تام والآخر مقدر، أو يكون أحدهما مناسبا لمعنى تقدمه، أو تأخر عنه، والآخر غير مناسب، أو بأن ينظر في الترجيح بينهما إلى شيء خارج عن اللفظ، فمثال المعنيين المشار إليهما، أن المعنى التام هو الذي يدل عليه لفظه ولا يتعداه، وأما المقدر فهو الذي لا يدل عليه لفظه، بل يستدل عليه بقرينة أخرى، وتلك القرينة قد تكون من توابعه، وقد لا تكون.

ومثل ذلك ما جاء في الأثر من أن "(سائمة الغنم زكاة)، فهذا اللفظ يستخرج منه معنيان، أحدهما تام والآخر مقدر، فالتام دلالته على وجوب الزكاة في السائمة لا غير، والمقدر دلالته على سقوط الزكاة عن المعلوفة، إلا انه ليس مفهوم عن نفس اللفظ بل من قرينة أخرى هي كالتابعة له، وهي أنه لما خصت السائمة بالذكر دون المعلوفة علم من مفهوم ذلك أن المعلوفة لا زكاة فيها".(٤٤)

ومن المسائل اللغوية التي يتجلى فيها إدراك اللغويين القدامى لأهمية السياق في تمييز المعاني مسألة (التضمين)، فالعرب "قد يشربون لفظا معنى لفظ فيعطونه حكمه، ويسمى ذلك تضمينا، وفائدته أن تؤدي كلمة مُؤدى كلمتين"،(٤٥) فإذا ضمنت فعلا معنى آخر يكون دالا على معنى الفعلين معا، ولا يوقف على ذلك إلا من خلال قرينة ترد في الكلام، "وذلك بأن يأتي الفعل متعد بحرف ليس من عادته التعدي به، فيُحتاج إلى تأويله، وتأويلَ الحرف ليصح التعدي به...، ومثاله {عَيناً يَشْرَبُ بِهَا

عِبَادُ الله} (سورة الإنسان الآية ٠٦) ، (فيشرب) إنما يتعدى بـ (من)، فتعديته (بالباء) إما على تضمينه معنى يروي، ويلتذ، أو تضمين (الباء) معنى (من)". (٤٦)

ونبه علماء اللغة إلى ضرورة التفريق بين العدول والتضمين، فالأول "تغير صيغة اللفظ مع بقاء معناه الأصلي، والتضمين إشراب اللفظ معنى زائدا على أصل معناه من غير تغييره عن صيغته...، فالتغيير في العدول على اللفظ دون المعنى، والتضمين بالعكس",(٤٧) ولا يكون التمييز بين هذه المسائل إلا من خلال دراسة اللفظ داخل السياق الذي يرد فيه.

الخاتمة

لقد أدرك العديد من علماء اللغة الأوائل دور القرائن السياقية في تحديد المعاني وتوجيهها،سواء أتعلق الأمر بالمسائل البلاغية فيما يتصل بالحقيقة والمجاز والمسائل التي تعتري التركيب كالزيادة والحذف والتقديم والتأخير وأثر ذالك على الخطاب أو تعلق الأمر بالمعاني النحوية، فإذا لم يظهر الإعراب مثلا، ومثال ذلك ما أورده ابن خلدون في حديثه عن اللغة العربية في عهده، حين أخذت تفقد سمة الإعراب في واقع الاستعمال اللغوي، فوصفها بأنها لم تفقد الدلالة على المقاصد والأغراض، على الرغم من فقدانها لدلالة الحركات التي تعين الفاعل من المفعول، حيث استبدلوها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصية المقاصد (٤٨)

وإدراك الأوائل لدور السياق وأهميته في أي تحليل لغوي باعتباره قرينة أساسية، أو قرينة كبرى، يبين أصالة النظرية في التحليل التطبيقي والممارسة العملية للدرس اللغوي العربي,

الهوامش

[1] ابن منظور، لسان العرب،دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، 2003م، مادةسوق ،ج٣/ ص٣٦٩

[٢] إبراهيم أنيس وآخرون ،المعجم الوسيط ،دارالجيل، الطبعة الثانية ١٣٩٢ه -١٩٧٢م.ج١/ص٤٩٠.

[٣] للشاطبي أبو إسحاق، الموافقات في أصول الشريعة ، دار الكتب العلمية، بيروت، د ت ط، ج/٣-٢٢٥.

[٤] ابن القيم، بدائع الفوائد، دار الكتاب العربي، بيروت، ج ٤، ص ٩-١٠.

[٥] تمام حسان ،اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٦٥.

[٦] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص ٤٤.

[٧] المرجع نفسه، ص ٤٠٢.

[٨] اللغة العربية معناها ومبناها د.تمام حسان ص ١٨٦

[٩] البلاغة و الأسلوبية د.محمد عبد المطلب ص ٣٢١

[١٠] المرجع نفسه ص ٣٣٣

[١١] دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ص ١٤٩

[١٢] السيوطي، الأشباه و النظائر في النحو، تح: إبراهيم محمد عبد الله، دمشق، ١٩٨٦م، ج ٣، ص ١٧٣.

[١٣] الأنصاري بن هشام، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ١٤١١ه، ١٩٩١م، ج ٢، ص ٦٠٧.

[١٤] سيبويه، الكتاب، تحقيق: محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط ٣، ١٩٨٨، ج ١، ص ٢٧٣.

[١٥] ابن جني، الخصائص، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١.ج ١، ص ٣٧٠.

[١٦] المصدر نفسه ، ج ٢، ص ٣٧١.

[١٧] البلاغة و الأسلوبية د.محمد عبد المطلب ص ٣١٣

[١٨] المرجع نفسه ص ٣١٨

[١٩] فقه اللغة علي عبد الواحد وافي ص ٢٢٧

[٢٠] يراجع البلاغة الأسلوبية د.محمد عبد المطلب ص ١٨٩

[٢١] فقه اللغة على عبد الواحد وافي ص٢٢٥، ٢٢٩

[٢٢] أسرار البلاغة عبد القاهر الجرجاني ص ٣٦٦-٣٦٧

[٢٣] المصدر نفسه ص ٣٦٣

[٢٤] سيبويه "الكتاب", ج١, ص ٢١٢- ٢١٣.

[٢٥] عبد القادر حسين"أثر النّحاة في البحث البلاغي"دار غريب للطباعة و النّشر و التوزيع،١٩٩٨، ص١٢١.

[٢٦] ابن جني, "الخصائص", مج٢, ص ١٦٢.

[٢٧] عبد الفتاح أحمد الحمّوز, "التأويل النحوي في القرآن الكريم", مكتبة الرشد, الرياض,ط١, ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م, ص ٣٧٤.

[٢٨] ابن عبد السلام الشافعي. "الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز". ص ٢.

[٢٩] الإنصاف في مسائل الخلاف كمال الدين أبي البركات عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله بن أبي سعيد الأنباري النحوي تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي القاهرة ط٢ ١٩٥٣ ج١ ص٢٢٩.

[٣٠] المثل السائر ابن الأثير ص ٢٤-٢٥

[٣١] المصدر نفسه ص ١٩٥

[٣٢] سر الفصاحة ابن سنان ص ٢١٣ -٢١٤

[٣٣] المصدر نفسه ص ٢١٧

[٣٤] المصدر نفسه ص ٢٠١-٢٠٢

[٣٥] المثل السائر ابن الأثير ص ١٩٤

[٣٦] المصدر نفسه ص ٢٠٠

[٣٧] تفسير التحرير والتنوير، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس د ط ١٩٨٤ ج٢٦ ص٢٧٧.

[٣٨] المثل السائر ابن الأثير ص ١٩٨

[٣٩] المصدر نفسه ص ٢٠٠

[٤٠] يراجع مغني اللبيب ابن هشام ج٢ ص ٣٢٤

[٤١] المصدر نفسه ج٢ ص ٣٢٦

[٤٢] شرح المفصل ابن يعيش ج١ ص ٩٤

[٤٣] المصدر نفسه ج١ ص ٩٢

[٤٤] المثل السائر ابن الأثير ص ١٩

[٤٥] مغني اللبيب ابن هشام ح٢ ص ٤٤٧

[٤٦] الإتقان في علوم القرآن السيوطي ج٢ ص ٤٠

[٤٧] حاشية الصبان على الأشموني محمد الصبان ج٣ ص ٢١٣

[٤٨] المقدمة ابن خلدون ج١ ص ١٠٧٣-١٠٧٥.